تفسير سورة العصر

﴿ للاستاذ الامام ، حجة الاسلام ، الشيخ محمد عبده ﴾

مفتي الديار المصرية

« رضي الله عنه »

(ويليها درس أو خطاب عام في التربية والتعليم)

للاستاذ الامام أيضا

« كلاهما منقول عن مجلة المنار الاسلامية بمصر القاهرة

الطبعة الثانية

(بمطبعة « المنار » بشارع مصر القديمة بمصر)

« سنة ١٣٣٠ هجرية »

﴿ مقدمة الطبعة الثانية ﴾

الحمد لله رب العالمين ، وصلى وسلم على سيدنا محمد امام المصلحين وخاتم النبيين ، وعلى آله الطاهرين ، وصحابته الطيبين ، وبعد: فان كتاب تفسير سورة العصر الذي كتبه الاستاذ الامام (رض) كتاب عرف قدره من قرأه من المسلمين وأدركوا أن ما كتب على هذه السورة في تفسير جزء (عم) لايغني عنه وقد اشار الاستاذ الامام الى هذا الكتاب هناك

ولما كانت نسخ الطبعة الاولى قد نفدت بعد أن عرف من سكان الاقطار النائية فائدته ولج الحرص بالعالم الاسلامي اقتنائه وتكاثر طلبه من كل صوب شرعنا باعادة طبعه خدمة للاسلام والمسلمين وتعميما للفائدة بين العالمين والحمد لله رب العالمين

وكيل ادارة المنار

صالح مخلص رضا

مقدمة الطبعة الاولى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

حمداً لمن أنزل الكتاب ، هدى وذكرى لأولي الالباب، وصلاة وسلاما على سيدنا محمد صاحب الحكمة وفصل الخطاب، وعلى الآل والاصحاب ، وبعد فيقول محمد رشيد بن السيد علي رضا الحسيني منشئ مجلة المنار الاسلامي بمصر : ان سورة العصر هي على اختصارها اجمع الكلام للهداية والاصلاح وقد سبق لي أن كتبت في المنار انها تصلح ان تكون دينا مستقلا ثم وجدت الامام الشافعي سبقني الى مثل هذا القول . وقد فسرها الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في درس قرأه على علماء الجزائر وفضلائها تفسيرا بين فيه من حكمها وأسرارها مالم يسبقه اليه أحد من علماء السلف والخلف ثم كتب تفسيرها بطالبهم . وبعد ان نشرته في مجلة (المنار) رأيت ان اجمعه مع ملخص خطاب للاستاذ الامام في العلم والتعلم — ألقاه على علماء تونس وفضلائها في كتاب مستقل رغبة في مزيد الانتشار ، لتعميم هذه الهداية الكبرى في الاقطار ، ليتدبر المسلمون وغير المسلمين ، كيف جمعت هذه السورة التي هي نحو سطر واحد ما يغني في الهداية عن أسفار الاولين والآخرين ،

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

المرجح ان هذه السورة من المكيات . وقد ورد عن الشافعي فيها أنه قال : لو لم ينزل الا هـذه السورة لـكفت الناس: وفى رواية عنه : لو تدبر الناس هذه السورة لـكفتهم : وصح ان الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا اجتمع اثنان منهم لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر هذه السورة الى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر . وقد ظن الناس أن ذلك كان

التبرك وهو خطأ وانما كان ليذكر كل واحد منهما صاحبه بما ورد فيها خصوصاً من التواصي بالحق والتواصي بالصبر حتى يجتلب منه قبل التفرق وصية خير لو كانت عنده

جرت سنة الله في كتابه ان يقسم أحيانا بشيء من خلقه أو بشأن من شئونه لينبه الناس الى ما أودع فيه من الحكمة وانهم ان كانوا قد نسبوا اليه شيئاً من الشر او ظنوا فيه ضربا من السوء فهم مخطئون فان السوء والشر ليسا في هذه الاشياء وانما هذا في نفوس المستعملين أو المعتقدين وقد كانت أديان يظن أهلها ان هذا الكون الزماني وما فيه كون شر وفساد ومن الواجب على طلاب السعادة ان يحقروه وان يفروا من طيباته ويجردوا نفوسهم الى عالم آخر فوق

عالم الكون والفساد . فجاء الكتاب المبين يبين لهم سوء فهمهم عن الله . ومن طرق تنبيههم الى خطأهم تلك الاساليب التي جاءت في القسم ووردت في الكتاب . أراد أن يكشف لهم ان هذه الاشياء من حكمة الله بالمنزلة التي تبلغ ان يقسم الله بها كأنها مما يعظمه الله وناهيك بذلك الذي يعظمه خالق كل شيء ووجود كل موجود الذي لا وجود لشيء الا منه

العصر إما القطعة المعروفة من الدهر وهو الزمن الذي يعيش فيه المتكلم مع غيره سواء قدر بعدد من السنين كمئة سنة مثلا أم لم يقدر ، وإما الوقت المعروف من النهار ما بين الظهر والمغرب وكل منهما تصح إرادته . وقد اعتاد الناس سب الاول فكل يشتكي من عصره ويقول : هو عصر جهالة

ونذالة ، ونقص مروءة ، وخبث طوية ، ورداءة عمل ، وينسبون ما شاءوا من الخير الى ما كان قبل عصرهم من العصور فاراد الله ان يزعج نفوسهم عن مثل هذا الاعتقاد بأن أقسم به ليدهش عقولهم بتعظيم ما ألفوا تصغيره ، ورفع قدر ما اعتادوا تحقيره .

والعصر بالمعنى الثاني كان الوقت الذي يجتمع فيه الاعطال من العرب قريش وغيرها اما عند الحرم أو في مواضع أخرى من منتديات الاحياء ويخوضون فيما لا خير فيه من غيبة أو هزء وسخرية او لغو من الحديث مله عن جد العمل فوقر في نفوسهم ان ذلك الوقت نفسه هو قرارة السوء ومجتمع الشر فدفع الله ذلك عن الزمان اليهم وعلمهم ان الوقت نفسه بمنزلة من الشرف يصلح معها لان يقسم به خالق السموات والارض

فكان عليهم ان يستعملوه فيما يناسب هـذه المنزلة وبشغلوه بطيبات الاعمال فيخلصوا بذلك من الخسران الذي لم يلحق بهم الا بسيئات أعمالهم

إنما ورد هذا القسم ـ على أي المعنيين ـ تأكيدا للخبر الذي أراد الله أن يسوقه الينا وهو ان الانسان في خسر الخ وإنما احتاج هـذا الخبر الى التـأكيد لأن كثيراً من الناس يظنون ان من الأحوال والاعمال وراء ما ذكر في هذه السورة ما لاخسار فيه بل يعتقدون ان السعادة في التخلص من عقد الايمان ، والعتق من قيود الفضـائل، وانطـلاق النفس فيما يسمونه متسع الفكر ، وحرية العمل ، بدون تحرج من رذيلة ، ولا إحجام عن فاحشة ، متى كانت تلذ النفس في العاجل ، وان أدت بها الى المهلكة في

الآجل ، وأن من الامم من يسعد وان اتبع أفرادها أهواءهم ، وملكتهم شهواتهم ، ماداموا يكسبون المال ويوفرون على أنفسهم وسائل القوة في زعمهم سواء آمنوا ام لم يؤمنوا ، عملوا الصالحات ام لم يعملوا ، تواصوا بالحق والصبر ام لم يتواصوا ، وأمثال هؤلاء الظانين يفوق عددهم الحصر في كل زمان ومكان

« أل » في الانسان الاستغراق كما يدل عليه الاستثناء في قوله « الا الذين آمنوا » والاستغراق بأل في لسان العرب ليس كالاستغراق بلفظ « كل » الذي يسور به المناطقة قضاياهم الكلية وليست «أل» مساوية لكل التي تضاف الى النكرة ويريد بها العربي تعميم الحكم في جميع أفراد الجنس وانما يراعى في « أل» استغراق المعهود عند المخاطبين لانها في لسانهم

المعهد وتعريف الجنس إما في فرد أو أفراد وان تفارقه
العهد في حال من الاحوال . وكذلك التي يسميها
النحاة للمعهد الذهني ويتحيرون في الفرق بينها وبين
النكرة ثم يقول من لا يعرف خصائص اللسان منهم :
ان الفرق في اللفظ واجراء أحكامه أما المعنى فلا
فرق فيه : وهو وهم فاسد فان قول الرجل لعبده :
اشتر اللحم من السوق : لا يفهم منه أي لحم في
الكون بأسره ولا أيّ سوق في العالم بأجمعه ولكن
قد عهد السيد نوعا خاصا تعود العبد شراءه وأسواقا
خاصة هي أسواق المدينة التي يقيم فيها وان لم يتعين
أحدها فالعهد والتعريف به لم يفارقها ، والفرق بين
المعنى معها والمعنى في النكرة واضح لمن يعرف
خصائص اللسان

والانسان الذي تجري عليه أحكام الانسانية ويحدث عنه في مثل هذه الشئون هو من بلغ سن الرشد عاقلا يميز بين الخير والشر وليس يخطر بالبال عند التخاطب في مثل هذا المقام الصبيان غير المكلفين ولا المجانين . ولو أتى بلفظ « كل انسان » لشمل ذلك . ولا تؤدي « أل » مؤدى « كل » الا بقرينة . فالاستغراق في الآية على حقيقته وهو شامل لجميع أفراد المكلفين من الناس سواء كانوا ممن بلغتهم رسالات الانبياء ام ممن لم تبلغهم كما سيأتي

والخسر في اللغة يطلق على الضلال وعلى الهلاك وعلى النقص ، وكل ما جر عليك عملك من شر فهو خسر لك وخسران وخسارة لانك كنت تبتغي بعملك الفائدة والثمرة الطيبة تجنيها منه فاذا جر عليك ما كنت

تتوقاه ، وحرمك ما كنت تتوخاه ، فقد خسرت
لانك ضللت في القصد ، ودخل النقص عليك في بغية
نفسك ، وأتاك التعب من حيث تطلب الراحة ، وكل
ما آلمك وأشقاك وأقاق نفسك ، واضطرب له قلبك،
فهو نقص في لذتك . واذا عملت عملا وانت تقصد
به سكون الناب ، وهناء العيش ، فحدث انزعاج
النفس ، ونقص الطمأنينة ، فقد ضللت به في القصد ،
وخسرت في السعي ، والخسر في الآية مطلق لا يتقيد
بدنيوي أو أخروي فكل مكلف ممن لم يتصف
بالاوصاف الآتيـة (في السورة) يصيبه حظ من
الخسران في هذه الحياة أو في التي بعدها ،لان السورة
مكية كما قلنا والخطاب في المكيات ، كانت تراعي فيه
العمومات في كثير من الآيات ، كما تراه في سورة

« والليل اذا يغشى » مثلا والخسر بفقد الراحة وطمأنينة النفس

الايمان في هذه السورة مطلق كذلك لم يتقيد بشيء كما ترى ولكنه محمول على ماهو معروف عند المخاطبين والأمس بعموم الخطاب انه اذعان النفس لليقين بالفرق بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة وبأن على الوجود مسيطرا يرضى الخير ولا يرضى الشر ويحب الفضيلة ويكره الرذيلة وأن من رحمته ان يخص من شاء من خلقه باطلاعهم على شيء من سره وأمرهم بأن يبينوا للناس ماالتبس عليهم من مذاهب أعمالهم ، ويعرفوهم مداخل الاهواء الفاسدة الى قلوبهم ، ومسالك الدلائل الصحيحة الى عقولهم ، فيقبلوا على هذه ويتلقوا مايساق اليهم منها ، ويسدوا

على أنفسهم تلك ويقيموا من العزم حارساً على نوافذها عنم ماعساه يهوي اليها ، وهذا الايمان هو المدلول عليه بقوله تعالى في سورة (والليل اذا يغشى) : «وصدق بالحسنى »: وليس الايمان هاهنا هو التصديق المقرون بالاذعان لتفصيل الاحكام الواردة في شرعنا خاصة فان الحكم انما هو على الانسان في جميع أمكنته وأزمنته لايختص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم بل يعم الامم جميعها ماضيها وحاضرها ومستقبلها فالكلام في السورة لتقرير حكم عام من أحكام الانسان في نفسه وانما تدخل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم في حكم هذا العام ويكون من بلغته تلك الرسالة ولم يصدق بجميع ماورد به القطعي سندا ودلالة من نصوصها خاسرا في الدنيا والاخرة بحكم

هذا النص من جهة عمومه وبالنصوص التفصيلية الاخرى التي وردت في كثير في سور القرآن

وليس الايمان كذلك مجرد ما يسميه الناس اعتقادا وان كان بمحض التقليد لاعمل لعقل ولا لوجدان فيه فان مثل هذا الايمان قد خسرت معه أمم كثيرة ممن صدقت بمرسلين صادقين، وأنبياء هادين، وإنما المراد منه ذلك التصديق المقرون بطمأنينة النفس وخضوع القوى لحكم ما آمن به

«إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورَسوله ثم لم يرْتابوا وجاهدوا بأموالهمْ وأنفسهمْ في سبيل الله أولئكَ همُ الصادقونَ» ذلك الايمان هو الذي كان الله ولا يزال ينوط به النجاة من الخسران في الدنيا والآخرة. وسيأتي إيضاح. ذلك أيضاً

أما هـذا الذي يتلقاه الناس من أفواه آبائهم فينشأ ابن المسلم لا يفهم معنى لما يعتقد أو لما يقول أبوه وإنما ينطق كما ينطق وتأخذه الحمية لما يراه يحمى له لا يفهم لذلك معنى ولا يجد لنفسه فيه بصيرة كما ينشأ ابن النصراني أو ابن اليهودي أو ابن المجوسي على مثل ذلك — فهو مما لا يعتد الله به وإنما يعتد الله بتلك السكينة الروحية التي تشعر النفس بهبطها اليها وذلك العقد القلبي الذي يعرف القلب مكانه منه . هـذا هو الايمان الذي يليق ان يسمى حياة للنفس يمدّها للشعور بجميع ما يلزم له وما يصح ان يحمل عليه . أما ذلك الذي سموه إيمانا وهو ليس به فهو مما يقتل النفوس ويهلك الارواح ويسلك بها مسالك الجهل وينتهي بها الى مهاوي الهلكة .

أما الصالحات في هذه السورة فهي تلك الاعمال التي عرفت عند الناس بأنها من أعمال الخير النافعة لخاصتهم وعامتهم المتفقة مع مصالحهم التي لا تنكرها الاذواق السليمة ، ولا تجافيها الطباع المستقيمة ، ومنها ما هو من ضروب الشكر لمفيض الخير والاحسان على الخلائق أجمعين كالعبادات الصحيحة التي جاء بها كل دين صحيح في أيّ أمة من الامم التي دعيت الى الأخذ بذلك الدين زمن العمل بشريعتها . ومنها ما هو من ضروب البر كبذل الاموال في طرق الخير والسعي في اغاثة المنكوبين ، واقالة العثار ، والعدل في الحكم ، وانقاذ المظلوم من الظلم ، ونحو ذلك مما يطول تفصيله . ومنها فضائل الملكات

التي تصدر عنها الصالحات كالامانة والعفة والانصاف والمحبة والاخلاص وأمثال ذلك. كل هـذا يسمى صالحات وان كان منه ما هو بدني يتعلق به العمل الظاهر، ومنه ما هو نفسي يتعلق به العمل الباطن، والعمل يتعلق بالملكات لانها انما تحصل عادة بترويض النفس عليها، ومجاهدتها في سبيل تحصيلها، ويدخل في هذه الاعمال عند كل أمة ما وردت به شريعة رسولها ويدخل فيها ما هدى اليه العقل عند الامم التي لم تبلغها رسالة. وإن من أصول الصالحات ما هو معروف عند البشر عامة لا تختلف فيه أمـة كالأصول التي ذكرناها قبل أسطر ولذلك سميت في الكتاب بالمعروف وسميت أضدادها بالمنكر أي ما تعرفه النفوس السليمة، وما تنكره العقول الصحيحة

التواصي ان يوصي كل من الشخصين صاحبه بشيء .
والحق ما يقابل الباطل وهو يكاد يكون معروف المعنى عند كل الناس وانما يخطئ أغلبهم في حمل هـذا المعنى على جزئياته فيأتي الواحد منهم الى أشد الباطل بطلانا ويقول انه الحق . فلو حمل الحق هاهنا على ما يراه الموصي حقا لـكان المعنى : وأوصى كل منهم صاحبه بما يعتقده حقا وطالبه بالاخذ به : وربما كان الآخر لا يعتقد أن الحق مع موصيه فيكون التواصي ضربا من التنازع لأن كلا يدعو الآخر الى مالا يرضاه وهو النزاع بعينه فلا يصح حمل المعنى عليه وإنما الذي يصح ان يقصد هو ان يوصي كل واحد صاحبه بتحري الحق فيما يعتقد بأن ينبهه الى الحرص على البحث في الادلة والتلطف في النظر للوقوف على الحق الذي هو

الواقع لا يختلف فيه بعد معرفة وجهه ، فإذا رأى منه ضلة هداه باقامة الدليل على ما هو الهدى ، واذا رأى منه تقصيرا في النظر نهض به اليه ، واذا وجد منه رعونة في الاخذ بظواهر الامور دون النفوذ الى بواطنها نصح له باستعمال الروية وامعان الفكرة . وهكذا يكون على الآخر ان يعمل مع صاحبه مثل ما يجب عليه ان يعمل معه . وفرض التواصي على كل واحد يبيح للصغير او يوجب عليه ما يبيح للكبير أو يوجب عليه من ذلك الا انه لا يمنع من رعاية كل قائم بواجب عليه حق الآخر ، فلوصية الصغير وعرضها على الكبير طريقة غير طريقة سوق الوصية من الكبير الى الصغير يعرف ذلك القوم على حسب آدابهم وما ألفوا في تخاطبهم . والتواصي بالحق يدخل في الصالحات

وإنما ذكره بلفظه لينوه بفضله ويشير الى انه أصل بنفسه تناط النجاة به استقلالاً .

ولا يصح ان يظن ظان ان النجاة منوطة بالتواصي بالحق وان لم يكن الموصي آخذا به فلو كان مبطلا وأوصى بالحق فقد نجا ، هذا مالا يعقل وإنما جاءت الآية الكريمة على طريقة الايجاز التي فضل بها القرآن جميع الكلام فان المراد : من كان على الحق وأوصى به . ومن المعروف عند العقلاء أنه لا يوصي بالشيء ولا يدعو اليه الا من أصاب منه الحظ الاوفر ، وكيف يدعو الى أمر ويحسن الدعوة اليه من لا تكون له من ذلك الأمر حلية يعرف بها ؟ وما تراه من قوم يدعون الى المعروف وهم يقيمون على المنكر فذلك لا يعد دعوة صحيحة لانهم لا يعرفون كيف يدعون وهم في دعوتهم

الى مايدعون اليه ينفرون الناس منه ولا يميلونهم الى ناحيته وخطاب الكتاب انما جاء على المعروف المألوف عند العقلاء . وانما قال « وتواصوا » ولم يقل :وأوصوا: ليبين ان النجاة من الخسران انما تناط بحرص كل من أفراد الأمة على الحق ونزوع كل منهم الى أن يوصي به قومه . ومن يهمه أمر الحق ليوصي صاحبه بطلبه يهمه ان يرى الحق فيقبله فكأنه في هذه العبارة الجزلة قد نص على تواصيهم بالحق وقبولهم الوصية به اذا وجهت اليهم

والصبر خُلق من أمهات الاخلاق بل مساك كل خلق . قالوا في فضل الصبر إنه ذكر في القرآن نحو سبعين مرة وليس لنا فائدة كبرى في تحديد العدد. ولكن جاء في الكتاب العزيز ذكر الصبر ومدح

أهله وتبشيرهم بالفوز والفلاح . والصبر ملكة في النفس يتيسر معها احتمال مايشق احتماله والرضى بما يكره في سبيل الحق . وهو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق وما أُتيَ الناس من شيء مثل ماأُتوا من فقد الصبر أو ضعفه . كل أمة ضعف الصبر في نفوس أفرادها ضعف فيها كل شيء وذهبت منها كل قوة ، ولنضرب لذلك مثلا نقص العلم عند أمة من الامم كالمسلمين اليوم ، اذا دققت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر فان من عرف بابا من أبواب العلم لا يجد من نفسه صبرا على التوسع فيه والتعب في تحقيق مسائله وينام على فراش من التقليد هين لين لا يكلفه مشقة ولا يجشمه تعبا ويسلي نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه ولو كان عنده احترام حقيقي لسلفه لاتخذهم

أسوة له في عمله فحذا حذوهم وسلك مسلكهم وكلف نفسه بعض ما حملوا أنفسهم عليه واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين . ثم هو اذا تعلم لا يجد صبراً على مشقة دعوة الناس الى علم ما يعلم وحملهم على عرفان ما يعرف ولا جلدا على تحصيل الوسائل لنشر ما عنده بل متى لاقى أول معارضة قبع في بيته وترك الخلق للخالق كما يقولون . يجلس الطالب للدرس سنة أو سنتين ثم تعترضه مشقة التحصيل فيترك الدرس أو يتساهل في فهمه أو يكلّ والده من الانفاق عليه فيصرفه الى حرفة أخرى يظنها أربح له فينقطع عن الطلب ، ويذهب في الجهل كل مذهب ، وكل هذا من ضعف الصبر

يبخل البخيل بماله ويجهد نفسه في جمعه وكنزه وتعرض له وجوه البر فيعرض عنها ، ولا ينفق درهماً

تي شيء منها ، فيؤذي بذلك وطنه وملته ، ويترك الشر والفقر يأكل قومه وأمته ، ولو نظرنا الى ما قبض يده لوجدناه ضعف الصبر ولو صبر على محاربة خيال الفقر اللائح في ذهنه يهدده بالنزول به، لما أصيب بذلك المرض القاتل له ولاهله ،

يسرف المسرف في الشهوات ، ويتهتك المتهتك في المنكرات ، حتى ينفد المال ، وتسوء الحال ، ويستبدل الذل بالعز ، والفقر بالغنى ، ولا سبب لذلك الاضياع صبره في مقاومة الهوى ، وضبط نفسه عن مواقع الردى ، ولو صبر في مجاهدة تلك النزغات لما كان قد خسر ماله ، وأفسد حاله

وهكذا لو أردت أن أعد جميع الرذائل وأبحث عن عللها الاولى لوجدتموها تنتهي الى ضعف الصبر

أو فقده ، ولو سردت جميع الفضائل وطلبت ينبوعها الذي تستمد منه حياتها ما وجدت لها ينبوعا سوى الصبر ، أفلا يكون جديرا بعد هذا بأن يخص بالذكر ؟ فالحق حياة العلم ، ومستنام السكينة ، ومطمأن العقل ، ومستقر الراحة للنفس ، والصبر مستمد الفضائل ، ومدحرة الرذائل ، ومساك الصالحات ، وملاك الحسنات ، فجدير بهذين الاصلين الجليلين ان يخصا من بين أعمال الانسان بالإشادة بذكرهما ، والتنويه بفضلهما ، ولفت النفوس اليهما خاصة ، لتبدأ باحرازهما فتصلح بهما أعمالها كافة ،

ربما تبين الناظر فيما ذكرنا وجه الحق في هذا الخبر الكريم وهو أن الانسان في خسر الا من استكمل لنفسه هذه الصفات التي ذكرت ولكنا مع ذلك نزيده توضيحاً

الايمان بالمعنى الذي بيناه طور من أطوار النفوس البشرية ارتقت اليه ، لتخلص من سوء حال كانت عليه ، النفوس البشرية في طموحها الى الشهوات هي على نحو ما عليه العجماوات مع امتياز في قوة استحضار الفائت وتمثيل الآتي ففاقت سائر نفوس الحيوان في الحرص على نيل ما يلذ لها مما ألفته ، وادخار ما يوفر لها أضعافه فيما يستقبل من الزمن ، فكل نفس تستعمل قواها ، في تحصيل ما يرمي اليه هواها ، فما أعظم الشر تتصوره في أشخاص من البشر لاهمَّ لواحد منهم الا في تحصيل ما يتخيله لذيذا أو نافعاً ، واتلاف ما يتمثله مؤلما أو ضارا ، ثم ينظر الى ذلك في يد غيره فيثب عليه ليستخلصه منه لنفسه او يتلفه لزعمه انه ضارٌّ به ولا رادع للمعتدي الا ما يكون من المتعدى عليه

ولا يصدق أحد منهم بأصل للخير أو للشر أو للفضيلة أو للرذيلة وإنما الخير عند كل واحد ما يلذه أو ينفعه سواء آلم غيره أو أضره ام لم يكن كذلك

أي شقاء يصيب النفوس البشرية اذا خلت من الشعور بذلك الاصل العظيم أصل التمييز بين الخير والشر ؟ فمن لم يكن مؤمنا بهذا الأصل ولم يصدق بالحسنى كما ورد في سورة الليل فقد خسر خسرانا مبينا . الفرد الواحد في ذلك ينال نصيبه من الضلال ، وسوء الحال ، اذا خلا قلبه من ذلك الشعور فانه يخبط في معاملته لمن معه على غير هدى ، فيصيبه منهم ما يصيبه من الاذى ، ثم هو لا يزال قلق البال ، حليف البلبال ، كما لا يخفى . ونصيب الامة من ذلك أعظم من نصيب الفرد بما لا حد له

من لم يؤمن بالقوة العظمى ، والقـدرة العليا ، والحكمة السامية ، والسيطرة القاهرة ، التي ينتهي اليها كل عمل في الوجود ، وبأن جميع ما عداها فهو في قبضتها ، فقد قصر نظره ، وضعف بصره ، وعظم وهمه ، ووهى معتمده ، يرى كل قوة من القوى التي بين يديه كأنها مصدر وجوده ، ومصرفة أموره ، واذا أصابه شيء من الشر لا يعرف له سبباً تخيل السبب شيئاً من تلك القوى كما يخطر بباله ، أو أصاب شيئاً من الخير بدون كسب منه اخترع له وهمه مصدرا كما يتفق له ، فتكثر عليه الارباب ، وتنسد في وجهه طرق الاسباب ، ويعتمد في شؤونه على ما لا يصح الاعتماد عليه ، وهذا هو منشأ ضروب الوثنية ، التي كانت سبباً في فساد العقول البشرية ، والخسران الذي

نزل بأهلها افراداً او أمما لا يخفى خبره على أحد ولا يزال ينزل بها من الخسران ما يسوء أثره الى اليوم

أما من آمن بأن جميع القوى التي نراها إنما تصدر من قوة واحدة وهي تحت نظام تديره إرادة واحدة وأن من الواجب على العاقل اذا جاء شيء من الخير أو الشر لا يظهر له سببه ان يبحث بعقله حتى يقف على السبب او ينتهي الى مقدر الاسباب فلا ريب انه ينجو من شر ذلك الخبط ، ويخلص من ورطة ذلك الخلط ، ويستوي في نظره جميع ما هو في الكون وتتساوى جميع أفراده عنده في أنها مربوبة لا يمتاز شيء منها على آخر إلا بما ميز به من الخصائص وما يكون له من الآثار ، فيسكن قلبه من كل ناحية ، ويعظم اعتماده على تلك القوة الواحدة ، ولا يأخذ في

أعماله الا بما سنته له ، فيعتبر ما وضعته من نظام الاسباب والمسببات ، فيجري عليه ثابت الجأش مطمئن القلب ، غير خائف من شيء بعد ما عرف من القدرة الإلهية ما عرف

من لم يؤمن بأن الحكمة السامية تقضي بأن يكون في البشر مبشرون ومنذرون يوضحون السبل ، ويكشفون الحجب ، ويغمض عينيه عن النظر في الادلة التي تؤيد دعواهم ، يحرم حظا وافرا من المعارف التي يصعب على عقله أو يستحيل عليه ان يصل اليها بدون واسطة هؤلاء المرشدين ، ويلتبس عليه كثير من أمره ، وتخفى عليه طرق الصواب في كثير من عمله ، فيقع في الشر وهو يسعى الى الخير ، ويصيبه الضر من حيث كان يطلب المنفعة ، وأي خسران أعظم من هذا ؟

من فقد الايمان بالله على الوجه الذي بيناه فأقل ماتخسره قوة العزيمة بالاعتماد على من تحيط قوته بالاكوان ، وأدنى مايفقده ركون النفس الى سندها الاكبر عند نزول الشدائد ،(١) وأخف مايصيبه من الخسران تشتت الاهواء عليه واضطرابه بين دواعيها ، وحرمانه من الهادي الذي يرشده الى الوجهة التي ينبغي ان يولي وجهه نحوها ، فيظل في حيرة لاخلاص له منها ، وأي شقاء أعظم منها ؟ والامم في هذا الشقاء كالافراد

---

(١) المنار : يؤيد هذا ماثبت من ان الجنود المتدينة أشجع واثبت من الملحدة أو ضعيفة الدين وقد كتبت الجرائد الاوربية هذه الملاحظة في أثناء حرب انكلترا والترانسفال ومن ذلك اتفاق العارفين على أن جيش الدولة العلية في مقدمة جيوش العالم شجاعة وصبرا على المكاره « هذا وما ... فكيف لو » رجعت الى ذكر الصحابة والتابعين

الاعمال الصالحة تتبع الايمان الصحيح في الاغلب غير ان من الناس من يظن ان الايمان قول يعبر عن خيال في النفس لا أثر له في العمل أو انه اعتقاد يتخذه الشخص مميزا له عن غيره في جامعة من الجوامع كاعتقاد المسلم بأنه من أهل التوحيد وانه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ليتميز بذلك عن غيره من الملل، وكاعتقاد كل ذي دين بما يظنه من دينه ومع ذلك لا يأخذ نفسه بالعمل على سنن ذلك الدين . وهذا الايمان لا ينجي صاحبه من الخسران بل لابد في النجاة من العمل الصالح وقد بينا الاعمال الصالحة فيما سبق إجمالا ولا خسار أعظم من خسار يحل بمن لم يأت تلك الاعمال سواء كان ذلك في الدنيا أو الآخرة

وبيان الخسران بذلك المعنى الذي فهمته تعلم أنه عام في كل من فقد الإيمان وترك العمل الصالح سواء كان ممن بلغته دعوة الانبياء وحاد عن سننهم أم كان ممن يسمونه (أهل الفترة) أم ممن لم تبلغهم الى اليوم دعوة سواء قلنا بنجاة هؤلاء في الآخرة أم لم نقل فإن الخسر في الآية الكريمة ليس محدودا بخسر الآخرة، وخسر الآخرة ليس محدودا بالابدي منه فصريح الآيات ان من لم يكن من المؤمنين أو لم يعمل الصالحات فهو خاسر أي ضال أو واقع في شقاء على ما سبق بيانه. ولا ريب في عموم ذلك لجميع أصناف البشر في أي زمان وفي أي مكان وعلى أي حال

بعد أن ذكر ركنين من أركان النجاة من الخسران في الامم والإفراد جاء بركنين آخرين لا يتم كل

منهما الا بتعاون الافراد ولا يمكن لفرد واحد أن يستقل به وهما ركنا التواصي بالحق والتواصي بالصبر على النحو الذي بينا . فان التواصي لا يكون الا من متعدد فلا نجاة من الخسران الا بأن يقوم الافراد من الأمة مهما عظم عددهم بأن يوصي كل واحد منهم من يعرفه من الباقين بأن يطلب الحق ويلتزمه وأن يأخذ بالصبر في جميع شؤونه فلو أن شخصاً واحدا قام بذلك وأوصى غيره ولكن الباقين لم يقوموا بمثل ما قام به لحل الخسر بالجميع في الدنيا لا محالة فإن الامة اذا غفل معظمها عن الحق والدعوة اليه ووهن الصبر في نفوسهم فلا محالة يستولي عليها الباطل وتضعف منها العزائم فيسوء حالها وترمي بنفسها في الهلكة « واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذينَ ظلموا منكمْ خاصةً » وأما في

الآخرة فالخسار إنما يحيق بمن لم يوص أو من لم يسمع الوصية ولم يقبلها . فان كان الموصي لم يحصل من وسائل التقريب ما يحتاج اليه وكان نفور صاحبه من طريقة نصحه ولو سلك غيرها لقبل منه كان الخسار في الآخرة عليه كذلك ، وأي نجاة لأمة يسكت أبناؤها على المنكر يفشو بينهم ولا تتحرك نفوسهم الى التناهي عنه والمنكر مفسدة الافراد ومقراض الامم ؟؟

التواصي بالحق والتواصي بالصبر يدخل فيهما الامران ـ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ لان من أوصى بالحق ودعا اليه لا يتم له ذلك حتى ينهى عن الباطل ويصد عنه ، ومن أوصى بالصبر على مشاق الأعمال الصالحة لا يكمل له ذلك حتى يبين مساوي الاعمال الخبيثة وعواقب التفريط بترك تلك الصالحات

فقد أودع الله في هذين الركنين ركني الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر في جميع الاعمال والاحوال وقرر لنا
ان لا نجاة لقوم من الخسران في الدنيا والآخرة الا بأن
يقوم كل واحد منهم بما يجب عليه من ذلك في القدر
الذي يمكنه وعلى الوجه الذي يمكنه ، وقد أكد لنا الخبر
بما أورده من القسم فليس في الخبر تجوز ، و
تضمنه من الامر هوادة ، فمن الواجب على كل
تريد ان تنجو من الخسران ان تقوم بهذا الفرض وهو
التواصي بالخير والتناهي عن الشر أو التواصي بالحق
والتواصي بالصبر ، فاذا طرأ على عوائد الامة أو نزل
بها من الحوادث ما بغض اليها التناصح أو حبب اليها
التساهل في فريضة التواصي كان ذلك انذاراً بحلول الخسار ،
وتعرضا في الدنيا للعار والدمار ، وفي الآخرة لعذاب النار ،

ولا يجوز لاحد ان يتعلل بذلك التساهل اذا وقع من الامة ويقنع نفسه بأنه عاجز عن النجاح في نصيحته ولهذا يكفيه ان ينكر المنكر بقلبه وبذلك ينجو من الخسران الاخروي ان لم ينج من الخسران الدنيوي كما يتوهمه بعض المسلمين اليوم خصوصاً اولئك الذين عرفوا بينهم بالعلماء فقد أخطأوا الخطأ العظيم في زعمهم أن إعراض العامة عنهم ينجيهم من العقوبة الالهية اذا لم يبذلوا النصح لهم ولم يبينوا لهم وجه الحق وان انكروه وصكوا وجه الداعي اليه فقد صدق الله وعده ، وأكد خبره ، ولا سبيل الى التأويل في أمره ، ولا الى جحد ما يتلوه من أثره ،

يحتج كثير من عامة أولئك العلماء بحديث « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ،

فان لم يستطع فبقلبه » (*) ولكنا نقول انه لا يصح الاحتجاج به في ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فان تغيير المنكر عند رؤيته شيء يتعلق بأمر خاص وهو المنكر المعين الواقع من الشخص المعين وقد يتسامح في معاملة الشخص المعين في حالة مخصوصة لشأن مخصوص فان ملكا من الملوك أو أميرا من الامراء الظالمين لا يحتمل ان يقال له : ان الأولى بك ان لا تفعل ما تفعل أو ليتك لم تفعل هذا أو ليتك فعلت هذا : فضلا عن ان يقال له : اترك هذا فانه منكر أو

(*) المنار ـ تتمته « وذلك أضعف الايمان » رواه أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان وهو حجة على تاركي فريضة الامر والنهي كسلا وتهالا لانه يأمر ببذل الاستطاعة واستنفاد الطاقة في هذه السبيل على خصوصية الموضوع كما قال الاستاذ الامام

ولا يجوز لاحد ان يتعلل بذلك التساهل اذا وقع من الامة ويقنع نفسه بأنه عاجز عن النجاح في نصيحته ولهذا يكفيه ان ينكر المنكر بقلبه وبذلك ينجو من الخسران الاخروي ان لم ينج من الخسران الدنيوي كما يتوهمه بعض المسلمين اليوم خصوصاً اولئك الذين عرفوا بينهم بالعلماء فقد أخطأوا الخطأ العظيم في زعمهم أن إعراض العامة عنهم ينجيهم من العقوبة الالهية اذا لم يبذلوا النصح لهم ولم يبينوا لهم وجه الحق وان انكروه وصكوا وجه الداعي اليه فقد صدق الله وعده ، وأكد خبره ، ولا سبيل الى التأويل في أمره ، ولا الى جحد ما يتلوه من أثره ،

يحتج كثير من عامة أولئك العلماء بحديث « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ،

فان لم يستطع فبقلبه » (*) ولكنا نقول انه لا يصح الاحتجاج به في ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فان تغيير المنكر عند رؤيته شيء يتعلق بأمر خاص وهو المنكر المعين الواقع من الشخص المعين وقد يتسامح في معاملة الشخص المعين في حالة مخصوصة لشأن مخصوص فان ملكا من الملوك أو أميرا من الامراء الظالمين لا يحتمل ان يقال له : ان الأولى بك ان لا تفعل ما تفعل أو ليتك لم تفعل هذا أو ليتك فعلت هذا : فضلا عن ان يقال له : اترك هذا فانه منكر أو

(*) المنار ــ تتمته « وذلك أضعف الايمان » رواه أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان وهو حجة على تاركي فريضة الامر والنهي كسلا وتعللا لانه بأمر ببذل الاستطاعة واستنفاد الطاقة في هذه السبيل على خصوصية الموضوع كما قال الاستاذ الامام

افعل هذا فانه من المعروف : وربما كانت كلمة من هذا القبيل سبباً في اتلاف نفس القائل ، بسطوة ذلك الظالم ، ولكن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لم ينحصر في طلب تغيير المنكر في هذه الحالة المحدودة بل ذلك شامل للوعظ العام في المساجد والطرق والاسواق والمنتديات وفي أوقات الاجتماع الخاصة وفي الحديث مع الاصحاب والاحبة وفي كل حال من أحوال الاجتماع خاصة وعامة . ومثل هذا يستطيعه كل واحد من الناس على حسبه فلا يمكن لاحد ان يزعم انه عاجز عن القيام بفرض الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإطلاق لأنه لا يوجد أحد يزعم العجز من جميع الوجوه عن هذا الذي بينا الا أن يكون قد بلغ من العجز غاية لا يبلغها الحيوان الاعجم .

غير انه يجب على العلماء ومن يتشبه بهم ان يتعلموا من وسائل القيام بالواجب ما تدعو اليه الحال على حسب الازمان واختلاف أحوال الامم ، وأول ما يجب عليهم في ذلك أن يتعلموا التأريخ الصحيح وعلم تكوين الامم وارتفاعها وانحطاطها وعلم الاخلاق وأحوال النفس وعلم الحس والوجدان ونحو ذلك مما لا بد منه في معرفة مداخل الباطل الى القلوب ومعرفة طرق التوفيق بين العقل والحق وسبل التقريب بين اللذة والمنفعة الدنيوية والاخروية ووسائل استمالة النفوس عن جانب الشر الى جانب الخير . فان لم يحصلوا علم ذلك كله فوزر العامة عليهم ولا تنفعهم دعوى العجز فانهم ينفقون من أزمانهم في القيل والقال ، والبحث في الالفاظ والاقوال ، ما كان يكفيهم ان يكونوا بحار علم ، وأعلام هدي ورشد ،

فليطلبوا العلم من سبله التي قام عليها السلف الصالح والله كفيل ان يمدهم بمعونته . اما وقد انقطعوا الى ما يعجزهم عن القيام بأمره فلن يقبل الله لهم عذرا بل فليتربصوا حتى يأتي الله بأمره

لو قضى الزمان بأن يكون من وسائل التمكن من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واشتغال الناس بالحق عن الباطل وبالطيب عن الخبيث أن يضرب الانسان في الارض ، ويمسحها في الطول والعرض ، وأن يتعلم اللغات الاجنبية ليقف على ما فيها مما ينفعه فيستعمله وما يخشى ضرره على قومه فيدفعه ، لوجب على أهل العلم ان يأخذوا من ذلك بما يستطيعون ، ولهم في سلف الامة من القرن الاول الى نهاية القرن الرابع من الهجرة أحسن أسوة ، وأفضل قدوة ، وكل

مايهونون به على أنفسهم مما يخالف ذلك فانما هي وساوس الشيطان، يشغلهم بها عن النظر في معاني القرآن، ويحرمهم من التعرض لرحمة الرحمن،

بقيت مسألة كثر السؤال عنها، والالحاح عليّ في التعرض لها، كلما ذهبت الى مكان وجدت لها حاملا، لا يلبث أن يتوجه إليّ سائلا، وهي مسألة الاختيار والكسب، ونسبة الافعال الاختيارية الى العبد أو الى خالق العبد، ولا أنكر أن هذه المسألة كانت من أعظم المسائل خطرا على الاسلام والمسلمين ولكن كان في مرور الزمان وتتابع الحوادث ما يهدي الناس الى وجه الحق فيها ويرشدهم الى ان يرجعوا الى كتاب ربهم وهدي نبيهم

نزوع النفوس الى الخوض في هذه المسألة ضرب من

ضعف الصبر أو فقده . الوجدان يشهد والحس يشاهد أن الذي يرفع يده بالسيف ويضرب آخر فيقتله هو الذي ضربه ويقول الرائي والمخبر : إن فلانا قتل فلانا أو ضربه أو اعتدى عليه : فنسبة الافعال الى من صدرت عنه من العباد مما لا يحتاج الى بحث ولا نظر . ثم جاء القرآن يقول « بما كنتم تعملون » « وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكم » وغير ذلك من الآيات حتى قال في الآية التي يحتجون بها « واللهُ خلقكم وما تعملون » فلو سلم ان المراد مما تعملون العمل نفسه فقد نسب العمل اليهم وقامت أحكام الشريعة جميعا على هذا الاصل . ولو كان فعل العبد ليس له لبطل تكليفه به إذ لا يعقل ان يدعى شخص الى مالا يقدر عليه ، وان يكلف بما لا أثر لارادته فيه

ولو كان فعل القاتل ليس له لامتنع القصاص ولم تكن فيه لنا حياة . فالعقل والشرع والحس والوجدان متضافرة على ان فعل العبد فعله . وكون جميع الاشياء راجعة الى الله تعالى ووجود الممكنات انما هو نسبتها اليه ولا يتصور اعتبارها موجودة الا اذا اعتبرت مستندة اليه ـ مما قام عليه الدليل بل كاد يصل الى البداهة كذلك . ومثل هذا يقال في عظم قدرة الله تعالى وانه ان شاء سلبنا من القدرة والاختيار ما وهبنا فهو أمر نشاهده كل يوم، ندبر شيئاً ثم يأتي من الموانع من تحقيقه ما لم يكن في الحسبان ، وتتناول عملا ثم تنقطع قدرتنا عن تتميمه ، كل ذلك لا نزاع فيه ، شمول علم الله لما كان ولما يكون قام عليه الدليل ولا شبهة فيه عند المليين ، فوجب على المسلم ان يعتقد بأن الله خالق كل شيء على النحو الذي

يعلمه وان يقر بنسبة عمله اليه كما هو بديهي عنده ، ويعمل بما أمره به ويجتنب ما نهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذي يجده من نفسه ، وليس عليه بعد ذلك ان يرفع بصره الى ما وراءه فقد نعى الله على المشركين قولهم « لوْ شاء اللهُ ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من شيء » ووردت الاحاديث متواترة المعنى في النهي عن الخوض في القدر وسره

فلو صبر العبد حق الصبر لوقف عند ما حدّ الله له ولم ينزع بنفسه الى تعدي حدود الله التي ضربها لعباده . ولست أحب التكلم في هذه المسألة بأكثر من هذا . والا خرجت من الصابرين ، وخضت في القدر مع الخائضين

ومن ثار به الهوس فتوهم ان علينا ان نعتقد ان العبد لا فعل له فقد خالف كتاب الله ، وعصى رسول

الله ، وقد أقول ـ واعتمادي على الله فيما أقول ـ: ان من يقول ذلك يخرج عن دين الله ، ويعطل شرع الله، فليحذر مؤمن بالله ان يقول ذلك ، واسأل الله ان يرشدنا جميعاً الى مافيه صلاح أنفسنا وان يوفقنا للتواصي بالحق والتواصي بالصبر بفضله وكرمه

قد يمر بخاطر سائل ان يسأل : اذا كان هذا الذي ذكر في هذه السورة هو حكم طبيعة الانسان في كل فرد من أفراد المكلفين منه وان من لم يكن على هذه الصفات فهو خاسر ضربا من الخسران في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما وان من أخذ بالحظ الاوفر منها نجا من ذلك الخسران فما بالنا نرى من غير المؤمنين من يتمتع بالسعادة في هذه الدنيا أمما وأفرادا ، ونرى من المؤمنين من يغمره الشقاء أمما وآحادا ، واذا شئت مثلا

لذلك فانظر الى حال اليابانيين وهم وثنيون أو حال بعض الامم الاوربية التي لايعتقد الكثير من أفرادها بالله ولا برسله وقارن بينهم وبين الامم المؤمنة كالمسلمين مثلا :

فندفع عنه هذا الخاطر بأن مايراه في بعض الامم من ظاهر السعادة ليس الا لمعان السراب حتى اذا جاءه وحقق أمره لم يجده شيئا . قال ماكس نوردو في كتابه المسمى (الاكاذيب العرفية لتمدننا) مامعناه : « ان الناس كانوا ولم يزالوا يطلبون الحق ولم يكونوا في زمان أبعد عنه منهم في هذا الزمان » ثم قال ماترجمته « إنك لو طرقت أي باب تسأل : هل مرت السعادة بهذا البيت ؟ لاجابك مجيب : اذا شئت فاطرق بابا آخر فان السعادة لم تمر ببيتنا » وهو يقول ذلك بعد ان ذكر ماعليه حال الامم الاوربية جميعها ونسبته من السعادة والشقاء وبعد ان

أجمل من وصف أحوالهم والمصائب التي تتوقع لهم والآلام الشاغلة لقلوبهم أجمعين ما يرجعهم لاجله المقصرون عنهم ، ويزهد الراغبين في مثل حالهم ، ويصدهم عن اقتفاء آثارهم ، وبين سبب ذلك وانه بعدهم عن الحق ، ونزوع أنفسهم الى الباطل ، وفقدهم الصبر في طلب المال ، وهرولتهم خلف داعي الشهوة ، لا يعصون له أمراً ، ولا يخالفون له إشارة ، ومنشأ ذلك خلو نفوسهم من الركون الى الإله الواحد خالق الجميع ورازق الاحياء ومقدر الاسباب لمكاسبهم على حسب ما وهبهم من القوى والقدر . ولو اطلعت على ما أخذ اليابانيين من ذلك وما تألم له نفوسهم من الاوهام الوثنية التي ما اتصلت بروح الا أفقدتها السكينة وأوجدتها

الاضطراب صعب عليك ان تحكم بأنهم سعداء . فاذا
كان لهم شيء من السعادة فهو ببركة التواصي بالصبر
أو عمل بعض الصالحات التي جعلها الله عمادا للسعادة في
هذه الحياة الدنيا كالامانة والصدق وارتفاع الهمة
والأخذ بالحق فيما يرفع الشأن ويكسب العزة .

أما حال المؤمنين - ان كانوا - فهو لا يخالف
الحكم الوارد في الآيات الكريمة فانا لا نعني ولا يعني
عاقل بالسعادة وفرة المال ورفه العيش في ظاهر الامر
وان كانت النفوس قلقة ، والضمائر محترقة ، ولكن
السعادة سكون النفوس وراحة الضمائر ، واطمئنان
السرائر ، والرضى الحقيقي بما وصل الى اليد ، والسعي
المقارب الى الرغيبة من سبلها المعروفة ، مع المعرفة بتلك
السبل ، والاعتماد على الهادي اليها ، ولا أشك في انك

تجد هذه الطمأنينة عند المؤمن بالمعنى الذي قدمنا في أي أرض وجد ، وفي أيّ أمة ولد ، وأما المثل الذي ضربته وهو جملة المسلمين فإني أقول لك ولا أخشى لوم لائم : أن من كان مؤمنا منهم وعمل الصالح وقام بفريضة التواصي بالحق والتواصي بالصبر فهو راض عن نفسه ، راض عن ربه ، سعيد وان كان بين الأشقياء ، حكيم وإن وجد بين السفهاء ، لا يعرف الشقاء الا بما ينعكس اليه من صوره في نفوس غيره ، وأما البقية فان كانوا خاسرين فخسرانهم جاءهم من فقد الاركان الاربعة . أما الايمان فلأنهم أخذوه اسما ، واكتفوا به علما ورسما ، وورثوا عن الآباء والامهات ، صورا وعبارات ، ومُثُل عبادات ، لا يحوك بصدرهم شيء من معناها ، وأوفرهم حمية على التوحيد أملأهم من

الاشراك تحت أسماء اخترعها، وألقاب اختلقها، كالوسيلة والواسطة وما يشبه ذلك مما لم ينزل به الله سلطانا. وأما العمل الصالح فكيف يجتمع مع الحسد والعدواة والكبرياء والجهل والكسل ونحو ذلك مما تراه في عامتهم، والأغلب من خاصتهم، وأما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فلم يبق له أثر بينهم يرون ما يرون من المنكرات، ويحسون بما يحسون من فاسد الاعتقاد، وكل منهم ساكت عما يرى ويحس من الآخر كانه لا صلة بينهما في الدين، وكأن لم يرد في دينهم ما يدعوهم الى التناصح، ولو أن واحداً منهم نصح للآخر لقامت عليه قيامته، وظنه محتقرا لمنزلته، غامطا لحقه، ولوجد من حذاقهم من يلومه ويقبح عمله، وكيف لا يخسر قوم هذا شأنهم، ؟؟ فلو أنهم رجعوا

الى دينهم ، وأقاموا في أنفسهم هذه الاصول الاربعة لرأيتهم وقد وفاهم الله وعده في قوله « وعدَ اللهُ الذين آمنوا منكمْ وعملوا الصالحاتِ ليستخلفنَّهم في الارضِ كما آستَخلفَ الذينَ منْ قبلهمْ وليُمكّننَّ لهمْ دينهمُ الذي ارتضىَ لهمْ وليُبدّلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » ولخرجوا من حكم الوعيد الذي انذرهم الله به من قبل في قوله « ومن كفرَ بعدَ ذلكَ فاولئكَ همُ الفاسقون » . « إنَّ اللهَ لايغيرُ مابقوم حتىَّ يُغيروا ما بانفسهمْ » والله اعلم

استدراك

كتبنا في مقدمة تفسير السورة في المنار ما يأتي :

اقترح بعض العلماء في الجزائر على الاستاذ الامام ايام كان عندهم ان يقرأ لهم درسا عاما يستفيدون منه ، ويتحقق به تلقيهم عنه ، ففسر لهم سورة العصر وقد كتب بعض من حضر الدرس ملخص ما قاله الامام وكتب بعضهم يقول ان بعض الكاتبين اخطأوا فيما كتبوا واقترح ان يكتب الاستاذ الامام نفسه تفسير السورة وينشر في المنار ليصحح عليه الكاتبون ما كتبوا فعرضناه ذلك عليه فكتب أيده الله بروحه ما يأتي :

*
* *

﴿ درس عام في العلم الاسلامي والتعليم ﴾

ألقاه الاستاذ الامام في تونس على ملأ عظيم من العلماء والفضلاء بطلبهم ولخصته جريدة الحاضرة التونسية الغراء ونحن ننقل عنها كما نقل المؤيد والثمرات مع شيء من التصحيح باذن الامام . قال بعد البسملة الخ :

ان بعض اخواننا الذين عرفناهم في تونس قد طلبوا من الفقير مسامرة أو محاورة وربما كان ذلك اصطلاحا عندهم ثم قالوا درساً فسألني بعضهم عن ذلك فقلت نعم هو درس ولكن لا تظنوا انه درس في تحقيق مسألة علمية فان عندكم من جلة العلماء من نعترف بفضلهم فمن أراد تحقيق مسألة علمية فليراجعهم أما هذا الفقير فرجل سائح قصدت هذه الديار للتعرف ببعض المسلمين والنظر في احوالهم وأمور دينهم من حيث العلم والتعليم

ولذلك لما أجبت طلبهم في إقراء الدرس ماقصدت اقراء درس حقيقي ولكن التكلم فيما يختلج بفكري من أمر التعليم والعلم والاعراب عما في ضميري مما أتمناه لاخواننا المسلمين من التقدم في العلم . وقد رأيت في بلاد الاسلام التي سحت فيها عدة أناس يشتغلون بالعلم ولكني وجدت عند الاغلب اشتباها في ما هو العلم الذي ينفق الوقت في تحصيله . هذا فيما يخص الامر المهم الذي كررته لكم ولا زلت أكرره من أهمية التعليم حتى ينتج ذلك التكرار ما نتمناه من التقدم مادام الناس في حاجة الى التكرار

ثم ان هناك مسألة مشتركة بيننا وبينكم عامة في سائر بلاد الاسلام وهي مسألة الرضا بالموجود ولها تعلق أيضاً بالتعليم . فاذا ذكرت نقصاً أو عيباً في طريقة

أو في حالة من الاحوال قيل لك : ماذا نصنع ونحن أناس متوكلون على الله وهذا مراد الله من عباده ؟ . وهو عذر المقصر عند تقصيره في بلاد الاسلام وعون على ما نراه من النقص في طرق تحصيل العلم . ولذلك أردت ضمه الى مبحث التعليم

معنى العلم

أما الـكلام في معنى العلم فليس الغرض منه الخوض فيما اصطلح عليه علماء السلف الصالح أو غيرهم من المتكلمين أو الفلاسفه أو غيرهم حتى من الزنادقة . لان هذه ألفاظ اصطلاحية طالما شغلت أهل العلم بتغيرها والاخذ والرد في معانيها . مع ان واضعيها انما حددوا بها المعاني حتى تنضبط ويسهل تناولها والوصول اليها . ولـكن يصح ان

يقال فينا وفيهم انهم أرادوا خيرا فاستعملنا شرًّا ولذلك أترك الالفاظ الاصطلاحية وأتكلم في معنى العلم من حيث هو معروف في الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وعلى لسان العامة والخاصة

العلم جاء ذكره في قوله تعالى «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟» الآية وهو استفهام انكاري معناه أنه لا يستوي عالم وجاهل . وقال تعالى «هل تستوي الظلمات والنور؟» أي ان الظلمة لا تساوي النور فبين لنا تعالى ان الظلمة مثال لحال من لا يعلم وان النور مثال لحال من يعلم . فتبين من ذلك ان عدم العلم يشبه الظلام ونحن نعلم ما يكون من الانسان اذا اشتد به الظلام وهو سار في طريق يقصد غاية معلومة فان الظلام يعمي عليه الطريق وربما سلك طريقاً يبعده عن

مقصده . وقد يصادف مهواة فيسقط فيها فتدركه هلكته قبل الوصول الى غايته

وهذه حال الجاهل بوسائل أي غاية من الغايات التي يعرض للانسان قصدها في حياته فكل من طلب غاية في حياته بدون علم لا يصل اليها . فيؤخذ حينئذ من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى بين لنا ان العلم للانسان كالنور لا يعني ان العلم سراج أو مصباح وانما ذلك مثل لحال من يعلم الطريق الموصلة له الى مطلبه والوسائل المؤدية اليه. فان حاله يشبه حال من يمشي وبين يديه نور يبين له السبيل ويكشف له ما فيها من الموانع فيتجنبها أو يذللها حتى ينتهي الى غايته ظافرا بعافيته وسلامته . لان الآيات والاعلام المنصوبة لا يراها المغمور بالظلام وانما يراها المبصر بالضياء والنور . ولما كان العلم ضوءاً يهدي الى

الخير في الاعتقاد والعمل كان أول مانزل على النبي الامي الذي لا يقرأ ولا يكتب قوله تعالى « اقرأ بسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * » الآية . فافتتح الله الوحي بتعليم القراءة والقراءة تعلم . وجاء في الحديث الشريف انه قال في أول مرة « ماأنا بقارىء » وما زال الملك به حتى قرأ الآيات .

ثم بعد أن أمر تعالى بالقراءة من لا يقرأ عادة وبين له ان الذي يأمره بالقراءة هو الذي خلق الخلق كله وهو قادر على أن يقرئه بعد أن لم يكن قارئا وانه الذي خلق الانسان الحي الناطق المفصح عما في نفسه من علق أي دم جامد لاعقل فيه ولا نطق فهو قادر على أن ينشيء فيه القراءة والعلم وان لم يسبق له تعلم - بعد ان ذكر هذا قال « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم *

علم الانسان مالم يعلم » نخص من العلم العلم بالقلم والكتابة تنويها بشأن التحرير والبيان وتنبيها على عظم فائدته وهو انما يكون بعلم اللسان والبراعة فيه . لا نريد من العلم تصور القواعد وانما نريد منه ملكة الافصاح والبيان وكون المراد منه هذا أمر بديهي اذ لولا الكتابة لما وصلنا الى درجة من الدرجات التي نراها فافتتاح الله تعالى الوحي بطلب العلم والثناء عليه سبحانه بأنه هو الذي علمه ووهبه الانسان ارشادٌ الى فضل العلم وحث على تحصيله خصوصاً العلم بالقلم

فالعلم ما يبصر الانسان في الغاية التي يطلبها ويهديه الى الحق الذي هو معقد النجاة قال تعالى « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين » ولم يقل للجاهلين أو الغافلين

فاذا كان للعلم هذه المزية فلا يصح أن يكون العلم الممثل له بالنور الا علم ارشاد وتبيين . ثم جاء في الاحاديث والادعية المأثورة قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما »[1] كانه يقول اللهم اجعل علمي علماً صحيحاً ينطبق على ما بينته في كتابك ويروى انه قال « اذا أتى عليّ يوم لا ازداد فيه علما فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم »[2] ثم انا نجد في الآثار وأقوال العلماء غير ذلك مما يطول ذكره كما تجدون فيما يدور على ألسنة الناس عند ذكر العلم

---

(١) المنار : رواه الترمذي وابن ماجه عن ابي هريرة

(٢) رواه الطبراني في الاوسط وابو نعيم في الحلية وابن عبد البر في العلم من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب عن عائشة وقد طعنوا في سنده ولذلك قال الاستاذ (ويروى)

ما يرشد الى أنهم لا يفهمون من العلم الا معنى التبصر في أي أمر من الامور والاتيان به على الوجه الا كمل بقدر الاستطاعة . فتبين من ذلك اذاً ان معنى العلم الحقيقي الذي أثنى الله عليه وميز به المهتدين من الضالين هو الكشف عن الامر الحقيقي بحيث اذا أراد ان يميلك عنه مميل لا يقدر على ذلك كمن عرف طريقا موصلة الى غاية فلا يعدل عنها مهما حاول مضله . فلا يكون العلم حقيقيا ولا تنبعث النفس الى تحصيله الا اذا كان كذلك بالنسبة الى الغاية المطلوبة منه . فاذا وجدنا من العلم ما يوصلنا الى البصيرة عما نقصد من الغاية في مدة قصيرة كيومين مثلا ورأينا ما سمي علما ولكنه انما يوصلنا في مدة أطول كأربعة أيام مثلا كان لنا أن نعد الاول علما حقيقيًّا لانه أرشدنا الى أقرب طريق مؤدية الى الغاية

وان نعد الثاني غير علم لانه عاقنا عنها وأوجد لنا العثار فيها فالعدول اليه سقوط في الضلة

وأولى بأن يسمى ضلة علم يقصد بتحصيله غاية ثم هو لا يؤدي الى تلك الغاية بالمرة بعد انفاق الزمن الطويل في تحصيله . فتسميته علما من الخطإ الذي لا يتفق مع ماجاء في الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة واستعمال الخاصة والعامة . ولكن من الناس من يقول لك العلم يطلق باطلاقات ثلاثة ـ الادراك والقواعد والملكة . فتحصيل القواعد وان لم تحصل الملكة يسمى علما على الحقيقة فاشتغالنا بتحصيله اشتغال بتحصيل العلم . غير ان هذا القائل لم يراع ماذا قصد المسمى للقواعد علما فانه لم يضع لها هذا الاسم الا لانها توصل الى الغاية في رأيه . فاذا استعملت لغير الغاية فقدت معناها وعدت من

الشواغل عن العلم المطلوب . فان شاء سمى هذه الشواغل جهلا لانها أضلته عن العلم وان شاء فليسمها علما كما يهوى لا كما يعرف الناس

العلوم الاسلامية

ومن هنا يمكنني أن أتخلص الى الكلام على حالتنا في تحصيل العلم في جميع بلاد الاسلام وهو موضوعنا فنقول

عندنا علوم شتى نشتغل بتحصيلها ونسميها العلوم الاسلامية وانما سميت بهذا الاسم لان موضوعاتها لها علاقة بدين الاسلام كالفقه وأصوله وهو علم يبحث فيه عن طرق استنباط الاحكام من أدلتها وكعلم التوحيد وهو علم اسلامي يبحث فيه عن وجوده تعالى وصفاته

الكمالية ثم العلوم النقلية كالتفسير والحديث واللغة والنحو والمعاني والبيان والبديع وما سمي علم الوضع ومن هذه العلوم وسائل ومقاصد نحن مشتغلون بجميعها وسائل ومقاصد . ولا حاجة الى الكلام في تبيين طرق الاشتغال بها عندنا وعندكم . انما الكلام في أمر عام معروف عند الجميع وهو طرق تحصيل هذه العلوم

علم النحو وتدريسه

فالنحو مثلا يدرس بتونس بكتبه التي تقرأ بمصر كالقطر والاشموني والصبان وله غايتان . الاولى التمكن من فهم كتاب الله وكلام نبيه عليه الصلاة والسلام وكلام سلف الامة . والثانية اصلاح اللسان من الخطأ .

نشتغل بعلم هذه القواعد في هذه الكتب ثم نشغل أنفسنا بالبحث في عبارة المؤلف هل تدل على ماقصده ؟ فقائل يقول نعم ، ويأتي قائل آخر يقول لا ، وقائل ثالث يرجح قول نعم ، ورابع يرجح قول لا ، ونحو هذا مما ترونه في التقارير المكتوبة على الحواشي ونطول بذلك الزمان ونضيع الفائدة ، وينصرف الذهن عن القاعدة ، ثم بعد الفراغ من العلم لايجد الطالب تقويما في لسانه ولا صحة في تحريره ولا قدرة على فهم ماجاء في كلام العرب أو في كتاب الله وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم.

ويزيد الامر صعوبة طريقة الابتداء التي اختاروها في تدريس النحو فان الاستاذ يبادئ الطالب وهو لا يعلم شيئا من اصطلاحات العلم بتحقيق المسائل وتفتيتها كما يقولون كأنه عريق في العلم ، ولا يراعي مقدار استعداده

للفهم . وقد وقع لي أني مكثت سنة ونصف سنة لا أفهم شيئا من شرح الكفراوي على الآجرومية فحملني عدم الفهم على الهرب من طلب العلم لتمكن اليأس من نفسي ولكن لامر أراده الله قهرني والدي على الرجوع الى الطلب فهربت في الطريق ولكني صادفت في مهربي من علمني كيف أطلب العلم من أقرب وجوهه فذقت لذته واستمررت في طلبه . فعلى الاستاذ أن يكون بيده ميزان يزن به ذهن الطالب ودرجة استعداده لقبول ما يقول . فيجب على المدرس أن يتنازل مع المبتدئ الى درجته ثم يرتقي به شيئا فشيئا حتى يصل الى الدرجة التي يتمكن فيها من ادراك دقيق المعاني . وهذا الفن — فن معرفة درجات الاذهان وكيفية الاستفادة — فن مخصوص تستلزم قراءته ست عشرة سنة اذا كان شرح

المطول يحتاج في قراءته الى ثمان سنين . ومن أنفق أوقاته في هذا الفن الذي ألفت فيه الكتب وبسطت فيه فاني أضمن له ثوابه عند الله تعالى أضعاف أضعاف ثواب من يختم اقراء المطول لما أنه يرشدنا الى الغاية التي طالبنا الله بها

علم المعاني والبيان

(والغاية منه)

علم المعاني والبيان علمان يبحث فيهما عن البلاغة وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فما هو ذلك المقتضى ؟ نجد الناظر في هذا الفن أو المعلم له يقول : هل تتحقق البلاغة بمطابقة الكلام لمقتضى الحال في الجملة أم لا بد من مراعاة جميع مقتضيات الاحوال؟ فان كان الاول فكيف يعد بليغاً من لم يراع الحال كما ينبغي وهو يعلم

أنه غير مراع له ، وان كان الثاني فلا تختلف طبقات البلاغة ولا يكون لها أعلى و أسفل . ويطول البحث ويكثر الجدال في ذلك وينصرف الذهن عن البلاغة نفسها ولا يجد الباحث مايرده اليها . وهكذا نجد البحث يطول في الغالب الى حد يشغل الذهن عن الغرض المقصود . مع أنه لو قال الاستاذ : البلاغة صفة في الكلام تبلغ المتكلم مراده من نفس السامع على قدر طاقته ثم انها تكون بمراعاة حال المخاطب وذلك ينقسم الى قسمين مايتعلق بفهم الكلام وما يتعلق بالمعنى الذي سيق له الكلام ، فما يتعلق بنظم الكلام هو موضوع علم المعاني : ثم ينطلق في بيان ذلك وتقرير المعاني التي سماها الامام عبدالقاهر الجرجاني واضع هذا الفن معاني النحو . أما القسم الثاني وهو حال المخاطب بالنسبة الى المعنى،

الذي سيق له الكلام فتوقف معرفته على أمور كثيرة ومعارف جمة يتوصل بها الى معرفة طبائع الاشخاص ومداخل المعاني الى قلوبهم فمن أراد أن يقنع مخاطبه بعقيدة مثلا فعليه أن ينظر فان كان المخاطب ممن لا يقنع الا بالبرهان فعليه ان يقيمه له وان كان ممن لا يدرك البرهان ولكنه يقنع بالمسلمات مثلا سلك معه له تلك السبيل ولا يكون بليغا الا اذا لاحظ ذلك مع ما يتعلق بالنظم : ـ لو سلك الاستاذ هذا المسلك لجم المعاني الكثيرة الى ذهن الطالب ووجه نفسه الى الغاية المطلوبة منها ثم انه بعد ذلك كله لا يعد معلما للبلاغة الا اذا وجه فكر الطالب الى ممارسة كلام العرب ونسج في التحرير والتعبير على مانسجوا عليه حتى تحصل له ملكة البلاغة ويصل الى الغاية من علمه . فان غاية هذا العلم تشمل كلا أمرين

الاول أن يكون الطالب فصيحاً بليغاً فيما يكتب أو يخطب والثاني أن يقيس بلاغة البلغاء ببلاغة القرآن فيدرك حقيقة الاعجاز . وهذا الامر الثاني هو في الحقيقة ثمرة الامر الاول فان من لم يكن بليغا بالملكة والعمل لا يمكنه أن يميز بين طبقات البلاغة

(اسهل طرق تعليمه)

سئل الاصمعي أي الرجلين اشعر امسلم ابن الوليد امابو نواس ؟ فحكم لابي نواس . فقيل له ان اخاك ابو عبيد يحكم لمسلم بانه اشعر فقال : ان ابا عبيد يروي الشعر ولكنه لم يكابد مشقة العمل في صناعته فليس اهلا للحكم : وهذا قول حق فان من لم يذق لم يعرف . واما ما يظن من انه يتيسر للطالب بعد معرفته

اصطلاحات علم المعاني ان ينظر في كتب التفسير كالكشاف مثلا ويعرف ما يقول الكشاف في وجوه بلاغة الآية وبذلك يكون ممن عرف بلاغة القرآن واعجازه فليس من كلام المحصلين لانه لو كفى ذلك لما كانت حاجة الى صرف الزمان الطويل في تحصيل علم المعاني . بل كان لنا ان نقول : ان القرآن معجزة لان صاحب الكشاف قال انه معجز ، ونتنفع بزماننا في تحصيل ما هو انفع وذلك مما لا يعقل . ورب قائل : ان المتكلم اليوم يقول ذلك من قبيل من يأمر غيره بالبر ولا يأتمر به فقد عرض بنفسه جزافا بالقاء خطبة على أناس لا يدري اخلاقهم ولا يدري ما يقولون بعده ولا يعرف مواضع الخطاب من أنفسهم . فالجواب نعم لم أقف على هذه الامور تفصيلا ولكن مدة اقامتي بهذه الحاضرة كانت

مدة اجتماع بافاضلها وعلمائها وبذلك حصلت لي خبرة اجمالية نخطر ببالي ان القي جملة فيما يطابق مقتضى الحال. وفي ظني ان ما اقوله ان لم يقع موقعا حسنا من نفوس جميع السامعين فلا أقل من أن يستحسنه بعضهم وذلك يكفيني في مطابقته لمقتضى الحال

اختلط علينا الامر بالنظر في المعاني الاصطلاحية وكثرة البحث فيها وانقلب الغرض منها الى مصاب نزل بنا في علومنا وعقولنا فانصرفنا بها عما طلب منها. ولهذا يلزمنا ان نأخذ مأخذا في العلوم يسهل تحصيلها وييسرها على الطالب. وفي ظني انه اذا هذبت طرق التعلم لطالب علم البلاغة مثلا أمكنه ان يبلغ الغاية منه في ثلاث سنين. وكذلك من أراد بلوغ الغاية من النحو لا يحتاج الي أكثر من ذلك بحيث يصدر الطالب بعد

هذا فصيحاً بليغاً مميزا بين طبقات البلاغة شاعرا بمعنى اعجاز القرآن قادرا على فهم ما جاء في كلام السلف والانتفاع به فيما يصلح معاشه ومعاده

وجملة القول ان الغاية من هذه العلوم العربية هي ان يبلغ المرء بالتعلم مبلغا كان عليه العربي بالسليقة وهذا يحصل بما قدمناه

ومما يلزم التنبه اليه في التعليم انه من حق الانسان ان يفتح للطالب باب النظر بنفسه في العلوم فيبين له القاعدة مثلا ثم يطالبه بما يراه في انطباقها على جزئياتها في العمل فانه اذا عوده على ان يقول له كل شيء وان يقوده في كل أمر وقف ذهنه عند حد الاتباع وصعب عليه ان يحقق امرا بنفسه فعليه ان يطالبه بالعمل دائما ويعلمه طريقة معرفة الخطأ والرجوع الى الصواب .

وهذا هو ما يطلب من الدرس بين يدي الاستاذ حتى تحصل ملكة التمييز . اما الوصول الى غاية الكمال في العلم بقدر الامكان فأمره موكول لاجتهاد الطالب بعد مفارقة الدرس . ووقوف ذهن هذا المنقاد في كل شأن عن معرفه الامور بنفسه من الامور المحسوسة . فمن ذلك اني لما جئت هـذا البلد كنت امر من طريق قصيرة من محطة سكة الحديد الى البيت ذهابا وايابا ولـكن مصحوبا بالسيد خليل بوحاجب وقـد رأيت امس اليوم ان أذهب الى المحطة راجلا فبعد ان مضيت في طريقي خطوات قيل لي : ان هذا ليس هو الطريق الى المحطة . فرجعت الى طريق آخر وطال عليّ السير حتى صعب عليّ الرجوع الى المنزل لتشتت الطرق عليّ واضطررت الي سؤال بعض المارة عن المحطة فدلني

عليها واذا بيني وبينها اطول مما بيني وبين البيت الذي خرجت منه . ثم بعد عودي الى البيت خرجت ماشيا مرة اخرى بعد نحو ساعة فاهتديت الى طريق المحطة ولكن وقع لي اشتباه على مقربة منها . ولم تزل الشبهة الا بسؤال مار . اما بعد ذلك فاني لا أضل في هذه الطريق أبدا . فالعصمة من الضلال انما تأتي في الحقيقة من عمل العقل وحده مع الاستعانة بما أرشد اليه المرشدون الراشدون

الغاية من علم التوحيد

ومن العلم ما يكون العلم والعمل به واحدا كعلم الكلام فان المقصد منه انما هو تحصيل اليقين بمسائله كثبوت الوجود لله تعالى وصفاته الكمالية التي ورد النص باثباتها له ودفع شبه الملحدين الذين ينكرون

ثبوت شيء منها وثبوت بعثة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين . فهذا العلم ان جرينا في تعلمه على التقليد في الدليل كالتقليد في النتيجة وا كتفينا بفهم ما جاء من الادلة على ألسنة من كتبوا فيها أعرضنا عن الغاية من وضعه لان اليقين لا يحصل بقراءة الادلة وخزنها في الاذهان وانما يحصل بالاستدلال الصحيح وإدراك العقل وجه الدلالة من نفسه بدون تقليد وانما يعد النظر في دليل المستدل السابق معينا ومهيئا للعقل الى تصحيح النظر . فالطريقة التي يجري عليها اغلب المعلمين ليست من غرض علم الكلام في شيء . ومن الناس من اذا سألته في أمر يتعلق بعقيدة من العقائد فأجاك بقوله : لا تقل ذلك فتكفر او تعتزل : أو ما أشبه ذلك وهو سلاح يتخذه المرتابون في عقائدهم ترسا يدفعون به

.ما يخشون من الشبه التي تزلزل عقائدهم ولكن هذا الدفاع يدل على ارتياب صاحبه في عقيدته قبل الدفاع فان صاحب اليقين يرتاح الى كل ما يسمع فان وجد عند مخاطبه شبهة أمكنه ان يزيلها من نفسه . وتلك الطريقة من طرق الدفاع عن العقائد هي التي اغلقت دون المسلمين أبواب العلم فانه كلما لاح نور إلهي في يقين الطالب يهديه الى طلب الحق وجد من هذه الكلمات كالاعتزال والفلسفة مايخمد ذلك النور فيه . ومن سوء الاستعمال في تعليم هذا العلم ان يعلم الطالب متن السنوسية مثلا وهو لم يحصل شيئا من مبادي العلوم : فيقال : ان الحكم العقلي ينقسم الى ثلاثة أقسام الواجب والمستحيل والجائز : ثم تقرأ له هذه الاقسام بالتعاريف الاصطلاحية وهو على جهل تام بما يعده لفهم معنى الحكم فضلا عن

أقسامه فيضطر الطالب الى حفظ هذه الالفاظ بدون ان يحصل من معناها الا على خيالات لا تنطبق على حقيقة

وقد قال المتقدمون انه لا ينبغي ان ينظر في علوم الكلام الا بعد تحصيل مقدماتها والاستعداد لفهم طرق الاستدلال حتى لا يضل الطالب بالنظر فيها وهو على جهل من وسائل فهمها فاللازم الاخذ بأحد أمرين إما ان يستدل الناس بالاكوان على مكونها وبالآثار على المؤثر فيها لينالوا بذلك اليقين فيما يعتقدون كل على حسب استعداده . فالعامي مثلا يستدل بما بين يديه من نبات وحيوان على حسب مايظهر له في نظامها ، والسيد علي الرضا يكتب كتاباً في التشريح يقول في آخره انه عرف بذلك وجود الله وانه المنفرد بالتصرف في هذا الكون . وإما ان يعلم علم الكلام على طريقة تكفله

الانتفاع به في الوصول الى اليقين الذي لا يقبل التزلزل والايمان الذي يملأ القلب خشية من الله ورجاء به وخضوعا له

وأما طلب هذا العلم بمجرد قراءة كتبه ومعرفة مادلت عليه عباراتها فقط فهو في الحقيقة مما يصد عن اليقين ويبعد عنه خصوصاً اذا خاف الناظر من ان يقال انه فيلسوف أو معتزلي أو ما أشبه ذلك فانه لا يقين مع التحرج من النظر وانما يكون اليقين باطلاق النظر في الأكوان طولها وعرضها حتى يصل الى الغاية التي يطلبها بدون تقييد كما هدانا الله الى ذلك في كتابه فانه يخاطب الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد ووقوفنا عند حد فهم العبارة مضر بنا في العلم ومناف لما كتبه أسلافنا وما تركوه لنا من جواهر المعقولات في الكتب

لنفيسة المستودعة بخزائننا التي أصبحت اليوم أكلة للسوس وفراشاً للأتربة لا نمد أيدينا اليها لنستلبه منها أو لنزعج السوس عن أكلها واتلافها . أنفس ما فيها فرمن بين أيدينا ورصعت به خزائن أمم أخرى أصبحت الآن تنعت بأم النور ولو طلبناها لم نجدها .

وربما اعتذر الطالب عن قبول النصيحة بأنه لا مناص له عن صرف الزمان في قراءة المطول ونحوه مثلا لأن غيره (ككتاب الصناعتين) ليس مما قرره القانون أو لأن الاستاذ لا يريده ولانه ينبغي ان يكون عالماً مشهوراً ولن يكون كذلك في نظر العامة الا اذا قرأ المطول بحواشيه في المدة المعلومة أو في أطول منها ولكن هذا لا يصح عذراً ولست أريد بنفي العذر ان أحمل الطالب على عصيان أستاذه أو حرمانه مما يطلب من الشهرة بين قومه بل

أريد أن أنبه الى سلوك طريق وسط وهو ان يجمع بين الحضور في درس الاستاذ وتحصيل حقيقة العلم فيطالع درس الاستاذ ويضم الى ذلك مطالعة شيء من الكلام البليغ وتحرير ماينسج على منواله في تحصيل الملكة المطلوبة

ولقد عرض لي مايعرض للطلبة اليوم وكنت أتمنى أن أبلغ من الشهرة مابلغه غيري فحضرت درس تلك الكتب مع اشتغالي باستكمال ما أردت من العلم . على ان طلب الشهرة في العلم انما هو عند شعور النفس بشيء من الغرور . فاذا أدركت حقيقة العلم نسيت شهوة الشهرة وأدركت انها بمنزلة من الجهل تقضي عليها بتحصيل العلم للعلم والعمل به في سائر الاوقات وعلى أي الحالات

للطالب أو الاستاذ أن يستفيد من هذه البدع

التي يراها جديدة ويقول انها بدع مخالفة لسنة السلف الصالح التي لا نريد ان نغيرها لانها لولم تكن مفيدة لما سنها أسلافنا فما لنا الا اتباعها وعليه يكون مثلي كمثل ذلك المغني على مسمع جماعة من الاعاجم بكلام مجنون ليلى الى طلوع الفجر فقيل له : بالله عليك غن لنا عن ليلى ومجنون : فقال ان الغناء كان في ذلك قالوا ولماذا لم تعلمنا من قبل حتى نفرح . ذلك ان الطريقة التي نشير بها هي طريقة أسلافنا الاقدمين فالعود اليها احياء لسنتهم وعمل بآثارهم فلما كان أسلافنا جارين في تعليمهم على تلك الطريقة القويمة كان نور العلم يضيء لهم سبلهم الى سعادتهم في معاشهم ومعادهم وكانت الامم التي تعد نفسها اليوم حاملة مصابيح العلم تستضيء بنورهم .

يقول القائلون : ان طلب تغيير الطرق إعتناء بالجديد

وولوع بالبدع أو نزوع لها: وليس الامر كذلك فان الجديد والبدعة هو ما نزاحم عليه وقد ظهر أثره، وعم ضرره، فالقديم الحقيقي هو ما ندعو اليه ولا نجاح لنا الا بالتعويل عليه

التوكل

بقيت مسألة نبهنا عليها في أول الامر وهي ان الواحد منا اذا لاح في ذهنه نور إلهي يرشده الى طريق العلم يأتيه معارض يقول له: ان الحالة الحاضرة هي ما قدر الله لا حيلة لنا فيها فالمرء متوكل على الله مسير بحسب القدرة فعلينا بتسليم أمورنا اليه تعالى والتوكل عليه: وبذلك ينطفئ النور الذي لاح بذهنه وبعد ان كان خطر بباله داعي العمل، ينزع للبطالة والكسل، والعجب انهم يظنون لهذه الوساوس من العقائد الدينية ولكن الدين

يتبرأ منها وما للدين عدو أضر من امثال هذه الاعتقادات،

نرى النبي صلى الله عليه وسلم وهو امامنا وقدوتنا لما بعث في دياجير الجهل وتحكم سلطان الشرور وقبائح العادات في الامم التي ارسل اليها لم يقل ان ذلك ما اراده الله ولم يسلم امره للقدر بترك العمل، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم أصابهم من الآلام في السعي ما أصابهم مع انهم أشد الناس توكلا على الله واكثرهم تمسكا بالقدر في طريق الحق فاذا كانوا اقدوتنا كما هو الحق فلماذا لا نقتدي بسيرتهم وننبذ وساوس المبطلين، وهذيان العمي والمغفلين، والله تعالى قد دعانا الى طريق الحق والتواصي بالحق وبالصبر وحملنا على ذلك ? « ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فالذين فقدوا التواصي بالحق والصبر هم بلا شك خاسرون،

الاحتجاج على ترك العمل بالقدر من عقايد
الملحدين . وقد جاء الكتاب الكريم بتشنيع اعتقادهم
والنعي عليهم فيه . وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من
نحو « لو شاء الله ما أشركنا ولا اباؤنا ولا حرمنا
من شيء » فلا يسوغ لاحد منا وهو يدعي أنه مؤمن
بالقرآن ان يحتج بما كان يحتج به المشركون . من يزعم
انه متوكل من المتظاهرين بالصلاح فهو كاذب زنديق
لانه انما يدعي التوكل اذا طولب بأمر فيه مشقة عليه
او يجد في نفسه عجزا عنه لا سيما اذا كان في مصلحة
عامة فهو يرضى بما يجد فاذا رجع أولئك المتبتلون الى
منافعهم الخاصة لم تجد للتوكل في نفوسهم اثرا فهم
يغشون ويخادعون ويحتالون لتحصيل ما به يعيشون ،
او ما به على الناس يظهرون ، وحينئذ لا يرجعون الى

التوكل فهم كذبة لا يصح الاقتداء بهم. وكفانا قدوة وخير اسوة سيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم فانه كان على شدة توكله واعتصامه بالاستعانة بالله جل شأنه لا يفتر عن العمل في الدعوة الى الحق وحمل الناس عليه.

يحتج بعض الناس على كسلهم بقوله صلى الله عليه وسلم «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطاناً [1]» ويفسرون ذلك باننا لو ألقينا أثقالنا على الله وتركنا أسباب عيشنا في كسبنا ومأكلنا ومطبخنا ومرقدنا لرزقنا كما ترزق الطير ولكن هذا الفهم خطأ بعيد عن المعنى المراد ولولا ذلك لقال صلى الله عليه وسلم لرزقتم كما ترزق الطير تلبث في أعشاشها وتفتح أفواهها فتصبح خماصا

(١) رواه أحمد والنسائي والترمذي وصححه وغيرهم

وتمسي بطانا » يظنون ان هذا الحديث حث على البطالة وترك العمل مع انه جاء للحث على العمل . والكلام في معنى حق التوكل ظنه ترك السعي بالمرة وهو خطأ محض فالمراد من حق التوكل ان يعتمد الانسان على الله سبحانه وتعالى مع اتباع سننه التي سنها في الطلب فيحصل الطالب من أسباب مطلوبه ما جعله الله سبباً ويدقق النظر في ذلك ما شاء حسبما طالبه الله تعالى به. ثم بعد ان يستعمل الاسباب يناجي ربه بسره : ان قد أتيت بما في استطاعتي على مقدار ما وهبتني وما بقي مما لا أعلم ولا أملك فهو في يدك فاغنني بقدرتك ولا تحرمني معونتك : ثم يمضي في عمله . هذا هو حق التوكل . وقد أشار اليه صلى الله عليه وسلم في قوله : « تغدو خماصا وتروح بطانا » فانه أراد بذلك ان الطير انما تسير في

تحصيل معاشها على الالهام الذي اودعه الله فيها . ألهمها معرفة الاماكن التي فيها أقواتها كما ألهمها الغدوّ الى تلك الاماكن لتصيب اقواتها منها فهي تعول بإرادتها على ذلك الشعور الذي منحه الله اياها . فحق التوكل لا يتم لنا الا بأن نجري في أعمالنا على ما يقوم عندنا مقام الالهام عند النظير . والذي يقوم عندنا مقام الالهام هو العقل . فلا نكون متوكلين حق التوكل حتى نستعمل نفوسنا في الوسائل التي توصلنا الى بلوغ الغاية من أعمالنا وان نجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضلال في طرق الوصول الى المقصود . فالاعتماد على الله بهذه الطريقة كافل نجاح الاعمال .

(الخاتمة) وبهذه الوسائل يسهل علينا التوفيق بين السعي والتوكل لا سيما في تحصيل العلوم وهي كثيرة

واولاها بالتقدم فيما اعتقد علوم لساننا العربي فان اصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لاصلاح عقائدنا ، وجهل المسلمين بلسانهم هو الذي صدهم عن فهم ما جاء في كتب دينهم وأقوال اسلافهم ففي اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم وكنوز الادب ما لا يمكن الوصول اليه الا بتحصيل ملكة اللسان ولا تحصل هذه الملكة الا بالعناية بتحصيل علومه على الوجه الذي سبق بيانه من الجمع بين معرفة القواعد من اسهل طرقها بدون التفات الى عبارات المعبرين وبين العمل بالقول والقلم حتى يملك الطالب من اللسان ما كان يملكه العربي بسليقته وبدون ذلك لا نصل الى فهم أسرار شريعتنا بل تسد في وجوهنا طرق الوصول الى الحقيقة منها

فعلى كل من له غيرة على ملته ان يبذل ما في وسعه

صفحة

﴿ تنبيه ﴾

قد أعدنا تفسير سورة الفاتحة ومشكلات القرآن أيضا وجعلنا ثمنها ثلاثة قروش صحيحة وثمن تفسير سورة العصر هذا قرشاً ونصف قرش ماعدا أجرة البريد ويطلبان من مكتبة المنار بشارع عبد العزيز بمصر

وأما من يطلب منهما نسخا تزيد على عشر نسخ فيطلب ذلك من ادارة مجلة المنار بشارع مصر القديمة ويخصم له شيء من الثمن على نسبة المشترى

ولا يخفى انا بذلنا العناية بطبع الكتابين المذكورين وطبعناهما بحرف أكبر من حرف الطبعة السابقة وعلى ورق جيد